مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَام

عناصر الموضوع

التعريف بموسى عليه السلام	٨
ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم	١٢
صفاته وأخلاقه عليه السلام	١٣
موسى عليه السلام قبل النبوة	١٨
تكليف موسى عليه السلام بالنبوة	٢٧
دعوته عليه السلام لفرعون وقومه	٣١
آيات موسى عليه السلام ومعجزاته	٣٩
موسى عليه السلام والسحرة	٤٢
نجاة موسى عليه السلام ومن معه	٤٦
موسى عليه السلام ورؤية ربه	٥١
موسى عليه السلام والعبد الصالح	٥٨
الدروس المستفادة من قصة موسى	٦٣

المجلد الثاني والثلاثون

التعريف بموسى عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه عليه السلام:

لم يذكر القرآن شيئًا عن نسب نبي الله موسى عليه السلام ولا عن والده أو والدته، لكن ذكر في غير موضع بالقرآن الكريم أن موسى أخٌ لهارون عليه السلام وقد توهم البعض كالقرطبي[1] أنهما أخوان للسيدة العذراء مريم، لقوله عز وجل على لسان بني إسرائيل: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم:٢٨]، ولتشابه اسمي أبي موسى وأبي مريم، فكلاهما اسمه (عمران).

والحقيقة أن التباعد الزمني بين موسى وعيسى عليه السلام أمرٌ ثابت بالقرآن الكريم، يقول الله عز وجل في قصة داود: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة:٢٤٦].

فداود عليه السلام كان بين موسى وعيسى عليه السلام.

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

ليس في القرآن الكريم ما يمكن من خلاله تحديد الفترة الزمنية التي ولد فيها نبي الله موسى عليه السلام بدقة، لكن الثابت في القرآن أن مبعثه كان سابقًا على نبي الله داود عليه السلام، وتحدثت بعض الآيات القرآنية عن جانب من الزمن الذي ولد فيه، حيث عاش بنو إسرائيل فترة طويلة في ظل الاضطهاد الفرعوني بسببٍ من تأييدهم للغزاة الهكسوس الذين حكموا مصر وتآمرهم على المصريين، واستحقارهم لعبادة المصريين، فضلا عن عقيدتهم بأنهم شعب الله المختار[2].

وبلغ بهم التنكيل أن أصدر فرعون قرارًا يقضي بذبح أبناء الإسرائيليين واستحياء نسائهم وتسخيرهم في أعمال الخدمة الشاقة، وفي سورة القصص بعض التفصيل لمعاناتهم في هذه الفترة العصيبة من تاريخ بني إسرائيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠١.

(٢) الدين وحاجة الإنسانية إليه عبر الرسالات الإلهية، محمود مزروعة، ص ١٤٦ - ١٤٧.

يقول تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص:٣-٦].

ونطالع في السورة الثانية من الكتاب الكريم تذكير المولى جل جلاله لبني إسرائيل بإنجائهم من هذا الاضطهاد ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة:٤٩].

ومثلها: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف:١٤١].

وقد روى الطبري عن ابن إسحاق قوله: «كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدمًا وخولًا، وصنفهم في أعماله، فصنفٌ يبنون، وصنفٌ يحرثون، وصنفٌ يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله: فعليه الجزية -فسامهم- كما قال الله عز وجل سوء العذاب»[(١)].

وروي أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته؛ رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة...فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها[(٢)].

ولذلك كان وصف القرآن الكريم لهم ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

ومنَّ الله جلَّ جلالُه على بني إسرائيل بالنجاة في غير موضع بالقرآن، من مثل قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٣٠﴾ [الدخان:٣٠].

ليس هذا فحسب؛ ففي موضع آخر يذكر نبي الله موسى عليه السلام بني إسرائيل بنعمة الله السابغة عليهم بأن كتب لهم النجاة من السخرة التي عاشوا فيها أمدًا بعيدًا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٣٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١١٦ بتصرف.

﴿ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم:٦].

ثالثًا: مكانته:

نص القرآن الكريم في أكثر من آية على مكانة موسى الكليم عليه السلام بين الأنبياء، وأشار إلى عظم هذه المكانة؛ فقال تعالى مجملا هذه المناقب ومبينًا هذه المكانة: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

والوجيه هو صاحب المكانة والمنزلة الرفيعة[(١)].

ومن أكثر الآيات تأكيدًا على هذه المكانة العظيمة قول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥١-٥٣].

ويمكننا إيجاز بعض مناقبه عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم على النحو التالي:

أولًا: أنه كان (مخلصًا) لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم:٥١] أي أن الله تعالى اصطفاه واستخلصه.

ثانيًا: جمعه بين الرسالة والنبوة عند من فرق بينهما لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥١][(٢)].

ثالثًا: تكليم الله جل جلاله له، لقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

رابعًا: علو مكانته، لقوله عز وجل: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وفيه رأيان: «قرب المكان»، وقيل: «قرب المنزلة»[(٣)]، وسواء أكان هذا أم ذاك فإنما يدل على علو مكانته عليه السلام.

خامسًا: اصطفاء الله تعالى له، وذلك لقوله ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤].

ولقوله سبحانه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه:١٣].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٠١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٨٦.

(٢) قال فخر الدين الرازي «ولا شك أنهما وصفان مختلفان»، انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٤٨.

(٣) يقول ابن عطية: «قال الجمهور هو تقريب التشريف بالكلام والنبوءة، وقال ابن عباس: بل أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة، وقال سعيد: أردفه جبريل، و«النجي»، فعيل من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: نجيًا معناه نجا بصدقة» المحرر الوجيز ٤/ ٢٠.

سادسًا: إلقاء محبة الله عليه: ودليل ذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

سابعًا: كونه من أولي العزم من الرسل: فجل المفسرين أن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ثامنًا: مكانته في الإسلام: (كان النبي صلى الله عليه وسلم حفيًا به، فحين قدم المدينة مهاجرًا، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فسألهم: ما هذا؟! قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم؛ فصامه موسى. قال صلى الله عليه وسلم: (فأنا أحق بموسى منكم)؛ فصامه وأمر بصيامه)[1]، وفي رواية أخرى: **(نحن أولى بموسى منكم)**[2].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيله على موسى الكليم لما له من منزلة عند ربه تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(استب رجلان، رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطشٌ جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)**[3].

على أن تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام لخير دليل على مكانته العالية الرفيعة عند ربه وبين خلقه، وهو الأمر الذي نص عليه القرآن في أكثر من موضع، وأكده الله تعالى تأكيدًا في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، رقم ١٨٧٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ١٩١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة، رقم ٢٢٤٥.

ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٥١-٦١، ٦٧-٧١
المائدة	٢٠-٢٥
الأعراف	١, ٣-١٥٩، ١٥٥-١٦٠
يونس	٧٥-٨٩
هود	٩٦-٩٧
إبراهيم	٥-٩
الإسراء	١٠١-١٠٤
الكهف	٦٠-٨٢
مريم	٥١-٥٣
طه	٩-٩٨
المؤمنون	٤٥-٤٩
الفرقان	٣٥-٣٦
الشعراء	١٠-٦٨
النمل	٧-١٤
القصص	٣-٤٨
الصافات	١١٤-١٢٢
غافر	٢٣-٢٧
الزخرف	٤٦-٥٦
الذاريات	٣٨-٤٠
النازعات	١٥-٢٥

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته الخَلْقية:

ليس في القرآن ما يدل على شيء من أوصاف موسى عليه السلام الخلقية، سوى آية تشير إلى قوته البدنية التي ميزته.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص:١٥].

وأورد ابن إسحاق ما يفيد قوة موسى عليه السلام وبسطته، يقول: «وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق، وشدة في البطش؛ فغضب بعدوهما فنازعه (فوكزه موسى) وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله»[1].

وفي السنة النبوية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (وأما موسى فآدمُ جسيمٌ سبطٌ كأنه من رجال الزط)[2]، وفي حديث آخر لابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا)[3]، وفي حديثٍ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان: (رجل الرأس)[4].

ثانيًا: صفاته الخلقية:

١. المروءة.

تتجلى هذه الصفة في عدة مواطن، منها ما حدث مع الرجل الذي من شيعته حين استنصره على المصري.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٠.
وقد اختلف المفسرون في معنى الوكز، فقيل: «الدفع بأطراف الأصابع، وقيل بجمع الكف». مفاتيح الغيب ٢٤/ ٢٠٠، «فوكز أي فطعن ودفع بيده العدو، وهو رجل لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطي من القوى الذاتية والمعنوية». نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٢٥٦، وقيل إن «الوكز واللكز واللهز واللهد بمعنًى واحدٍ، وهو الضرب بجمع الكف» الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود، رقم ٣٢٠٧.
قال ابن حجر: وهم قومٌ غير غلاظ معروفون بالطول والأدمة. فتح الباري ٦/ ٤٢٩، ٦/ ٤٨٤، والأدمة هي السمرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٠١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث ابن عباس، رقم ٢٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، رقم ٣٢٠٦. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة أيضًا، رقم ٢٥٠.

شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ [القصص:١٥].

فمروءة موسى عليه السلام منعته من تجاهل استغاثة رجل من بني قومه، ورغم أنه عليه السلام ندم فيما بعد على تسرعه وانفعاله الذي أدى إلى قتل المصري؛ إلا أنه كان دليلا على مروءته وشهامته.

وفي قصة البنتين اللتين سقى لهما دليل على مروءته؛ فلم يستطع عليه السلام أن يتجاوز أزمتهما، أو يتخلى عن معونتهما، كما تجلت مروءته في عدم انتظار الأجر من أحد ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:٢٤].

وكانت هذه المروءة أحد الأسباب لأن يخطبه الرجل لابنته.

٢. الوفاء بالوعد.

جرى اتفاق بين الشيخ الكبير وموسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

والشاهد أن موسى عليه السلام قد أوفى بعهده مع الشيخ.

٣. قوة الحجة والمنطق.

يقدم لنا القرآن في أكثر من موضع حوارات موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها دليل على قوة حجته ومنطقه، ولنا أن نتمثل في ذلك حواره مع فرعون الذي سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٥١]؛ فجاءت إجابته شافية كافية: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه:٥٢-٥٤].

فقد استخدم عليه السلام مفردات البيئة التي يعيش فيها (الأرض، السماء، المطر، النبات، الأنعام) ليقرب الصورة للمخاطبين (فرعون وملأه) وهذا أوقع في تعجزيهم وإقامة الحجة عليهم، وبلغ به التحدي مداه عندما قال له فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

فجاء رده منطقيًا: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ

بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء:٣٠-٣١].

فألزم فرعون الحجة وتحداه في يوم يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأعينهم.

٤. اللجوء إلى الله واليقين به.

من يطالع قصة موسى عليه السلام يعرف مدى تعلق قلبه بخالقه تعالى، فإليه يكل أمره يستنصره على أعدائه، ويطلب منه النجدة والمعونة، وتكشف هذه الآيات عن جانبٍ كبيرٍ من هذا التضرع.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٤-٨٩].

فقد طالب قومه بالتوكل على الله، ثم دعا ربه تعالى أن يعذب فرعون وقومه بسبب تكبرهم وتكذيبهم.

وتنقل لنا الآيات صورة حية من تضرعه إلى الله تعالى واستعانته به في قوله جل جلاله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَّ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦].

وقد تجلى تعلق موسى عليه السلام بربه حتى في أشد المواقف وأكثرها ضيقًا وكربًا، فعندما هرب وأتباعه من فرعون؛ أدركهم وجنوده عند البحر؛ فدب الخوف في قلوب أصحاب موسى وظنوا أنهم أحيط بهم، لكنه عليه السلام صاح وكله ثقة في ربه وخالقه: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦٢].

٥. حب الله والاستئناس به.

توضح لنا الآيات الكريمة كيف كان موسى عليه السلام كثير الأنس بربه جل جلاله، وينقل لنا القرآن كيف أسهب في الحديث مع مولاه عندما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧].

وهو سؤال كما قيل: «ليؤنسه ويبسطه بالكلام»[1]، ويستوجب إجابة بكلمة واحدة (عصا) أو كلمتين نحو (هذه عصا)؛ لكن موسى عليه السلام وجدها فرصة فأفاض

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٧.

في القول ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨].

لقد استرسل موسى عليه السلام كما يقول البقاعي: «مستأنسًا بلذيذ المخاطبة قوله بيانًا لمنافعها خوفًا من الأمر بإلقائها كالنعل، أي: أعتمد وأرتفق وأتمكن إذا أعييت، أو عرض لي ما يحوجني إلى ذلك من زلق أو هبوط أو صعود أو طفرة أو ظلام ونحو ذلك؛ ثم ثني بعد مصلحة نفسه بأمر رعيته فقال: ﴿وَأَهُشُّ﴾ أي أخبط الورق»[1].

وبلغ هذا الاستئناس ذروته عندما طلب موسى عليه السلام من ربه عز وجل أن يراه، وهو طلب عجيب ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

٦. التواضع والحرص على التعلم.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن: **(موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعَتِبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبدٌ بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب ومن لي به؟ وربما قال سفيان: أي رب وكيف لي به قال تأخذ حوتًا فتجعله في مكتلٍ حيثما فقدت الحوت فهو ثم...)**[2].

فاصطحب غلامه يوشع بن نون ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٦٥-٧٠].

تقدم لنا الآيات السابقة جانبًا من تواضع موسى بن عمران عليه السلام بداية من التماسه العلم من العبد الصالح ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وهي عبارة تشير إلى خفض الجناح من جانبه، ووضع نفسه في موضع المريد من شيخه، وكذا نزوله على شروط المعلم لصحبته، وفي هذا درس بالغ لكل طلاب العلم على النحو الذي ستظهره هذه الدراسة في مبحث مستقل.

٧. النهي عن المنكر.

رغم الوعد الذي وعده موسى عليه السلام للعبد الصالح بأن يصبر على صحبته ولا يكثر من سؤالاته إلا أنه لم يطق صبرًا بعدما رآه يخرق السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث العبد الصالح مع موسى عليه السلام، رقم ٣٢٢٠.

﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧١-٧٣].

وقتل الغلام: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٤-٧٦].

وإقامة الجدار: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف:٧٧].

فلم يترك موسى عليه السلام فرصة إلا نهى فيها -عما رآه منكرًا- قبل أن يتبين له الأمر، ومما عابه القرآن على بني إسرائيل في غير موضع عدم نهيهم عن المنكر لأنهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

٨. قوة الإرادة.

وقد أسهم في اكتسابه هذه الإرادة الصلبة كثرة المحن والتجارب التي مر بها منذ كان رضيعًا وضعته أمه في الصندوق، وقبل ذلك من يقينه الذي لا يفتر بربه تعالى، فعندما ناشد قومه قائلا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٢].

لقد راعتهم قوة أعدائهم الجبارين، ونسوا أن النصر ليس بالكثرة ولا بالعتاد؛ وتناسوا وصية موسى عليه السلام لهم ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وقد أورد القرطبي أن بني إسرائيل عندما امتنعوا عن الجهاد، عوقبوا بالتيه أربعين سنة، إلى أن مات أولئك العصاة ونشأ أولادهم، فقاتلوا الجبارين وغلبوهم[1].

وعندما ذهب لملاقاة العبد الصالح قال لفتاه يوشع بن نون: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

أي: لا أزال أسير حتى أبلغ المكان الموعود ولو سرت في سبيله أزمانًا طويلة، وذلك منبئ عن دأبه وارتفاع همته.

هذه هي بعض صفات نبي الله موسى عليه السلام التي نص عليها القرآن الكريم في كثير من المواضع، وهي صفات بشرية، وليست من الخوارق التي لا يدركها الإنسان مهما سعى إليها واجتهد، وفي ثنايا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٢٦.

هذه الدراسة إشارات إلى صفات أخرى ستتناولها في حينها، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!!

موسى عليه السلام قبل النبوة

أولًا: نشأة موسى عليه السلام:

في ظروف بالغة القسوة، ولد الطفل موسى عليه السلام في قوم مهانين مستباحي الكرامة، فالرجال سخرهم فرعون الطاغية في أدنى الأعمال وأشقها يسومهم سوء العذاب، والنساء منتهكة الحرمات، وعندما أدرك المخاض أم موسى زادها كربًا إلى كربها، وغمًا على غمها، فمصير الطفل مهدد كغيره من أطفال بني إسرائيل الذكور الذين لم ينجوا من آلة القتل الغاشمة خوفًا على ملك فرعون وجاهه العريض من الضياع بعد نبوءة أو رؤية، على خلافٍ بين المفسرين وكذلك بين المؤرخين[1]، وهو ما جعل الأم تضرع إلى ربها أن ينقذ وليدها من المصير المألوف آنذاك.

يصور القرآن الكريم كيف أراد تعالى لموسى عليه السلام شيئًا آخر غير مجرد الحياة التي هي أقصى ما تصبو إليه الأم الملتاعة، بل كل أمٍ في هذا الزمان؛ ولا عجب؛ فقد صنعه عز وجل لنفسه وعلى عينه، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، فقوله جل جلاله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٤٨، تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٨٧، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٣١.

منبئٌ بأن تربية الصغير ستكون لدنيةً بعنايته عز وجل بما يليق برسالته والمهمة التي ستلقى على عاتقه.

يقول الزمخشري: «لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به»(١).

والكلام هنا كما قال الطاهر ابن عاشور «تمثيلٌ لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئًا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه»(٢).

ولأن ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

فقد كان من الضروري رعايته لأنبيائه وأصفيائه، ولذا فقد من تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه العناية المبكرة التي لولاها لكان في مقام آخر لا يعلمه إلا الله، وذلك ظاهرٌ في قوله عز وجل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى:٦-٨].

وثمة نوع خصوصية في مولد موسى عليه السلام، يشير إليه قوله تعالى ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ [طه:٤١].

وهو تأكيد للآية السابقة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

ويفسر ابن جزي الغرناطي ذلك بقوله: «أي: استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني»(٣).

ولو استأنسنا بما كتبه البقاعي لقرأنا «ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق لنفسي لتفعل من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم»(٤).

فالعناية هنا تأهيل لموسى عليه السلام لمواجهة ما ينتظره من مهامٍ جسامٍ ومعاناة مع بني إسرائيل الذين لا يكفون عن الجدل.

أوحى الله جل جلاله إلى أم الطفل موسى وحي إلهام لا وحي رسالة(٥) ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧]، وما أعجب القدرة الإلهية! أمٌ تخاف على ولدها من القتل فتؤمر بإلقائه في الماء، ويطمئنها الله ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص:٧].

على ولدك؛ فإننا في قابل الأيام ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، الذين اصطفيناهم للدعوة والرسالة.

إن وعد الله عز وجل لهذه المرأة نافذٌ

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٢٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨.
(٤) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣.

وماضٍ؛ لكنه يحتاج إلى قلب مطمئن يسلم بقضاء الله وقدره، وإلا فكيف لامرأة ضعيفة تكتم حملها نحو تسعة أشهر خوفًا من عسس فرعون أن تستجيب لمثل هذا الأمر وتقذف بابنها وفلذة كبدها في النهر وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرًا؟! لكن أم موسى كانت على ثقة متينة بموعود ربها تعالى لها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وكما كانت حياة موسى عليه السلام معجزة -على النحو الذي سيتكشف بعد قليل- جاءت الآية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

معجزة في بيانها، فقد تضمنت أمرين ونهيين وبشارتين ولطائف أخرى يضيق المقام عن تفصيلها، وتوقف أمامها المفسرون، واشتهرت عند البلاغيين، ففرق الزمخشري بين خوفين: «أما الأول فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف»[(١)]، فالآية تتحدث عن خوف من أمر واقعي هو القتل على يد الفراعين، وخوف آخر محتمل هو غرق الرضيع في المياه.

ثمة آيات في سورة طه تتحدث عن نجاة الرضيع وتورد تفاصيل أخرى.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه:٣٧-٣٩].

ففي الآيات أنه تعالى أوحى إلى أم موسى بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليم الذي سيحمله إلى ساحل فرعون، الذي هو عدو لله عز وجل ولبني إسرائيل ومنهم الرضيع، وما كان للطفل أن تكتب له النجاة إلا بتدبير إلهي محكم.

لكن.. كيف يصل الطفل إلى قصر فرعون الفاجر وتكتب له النجاة إلا عن طريق قلب زوجته؟!

إنها المحبة التي ألقاها الله على موسى عليه السلام؛ ولا عجب فقد قال عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

واختلف المفسرون في تفسير هذه المحبة، فمن قائلٍ بأنها جمال في الخلقة وصف به، وقيل ملاحةٌ في عينيه، لكن ابن عطية ضعف هذا القول[(٢)]، وهناك من يقول إنها محبة القابلة التي ولدت أمه، وقائل:

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤.

محبة امرأة فرعون... إلخ[1].

والراجح أنه القبول العام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (**إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**)[2].

إن امرأة فرعون قد أحبته، وسعدت به، وقالت لفرعون: هذا الصغير ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، تقر به أعيننا وتسعد بها نفوسنا ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

فوافق فرعون ولم يكن يعلم أنه سيكون سبب هلاكه في الدنيا والآخرة ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨].

وقد شاع بين بعض القراء في أيامنا هذه أن يقرأ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا﴾ بالوقوف على (لا)، وهذا من اللحن -كما يرى أبو زكريا الفراء- وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وهي قراءة لا تستقيم عقلا؛ فهل يمكن لزوجة فرعون أن تخاطبه بهذه اللهجة فتقول له: هذا الولد قرة عين لي فحسب، أما أنت فلا؟! وإذا كانت قالت ذلك فلماذا لم تقل: عسى أن (ينفعني) أو (أتخذه) ولدًا بصيغة المفرد؟! وما الذي يضطر فرعون إلى إبقاء ولدٍ من المفترض أنه سيسبب له المتاعب، لا شك أن فرعون استبقى الولد بناء على رغبة زوجته التي أحبته بعد أن ألقى الله عليه محبةً منه، ويظهر أنه وقومه كانوا على يقين أنه إسرائيلي، وإلا فما يضطر أمًا إلى التخلص من رضيعها الذكر إلا إذا كان مهددًا كأقرانه من بني إسرائيل؟! كما يظهر من قول امرأة فرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فمن ذا الذي جرى عليه القتل آنذاك سوى ذكور بني إسرائيل؟!

والحقيقة أن موسى عليه السلام كان بالفعل قرة عين لها، فقد كتب الله لها النجاة من فرعون وعمله الخبيث، وأشاد بها في كتابه الكريم؛ بل جعلها مضرب المثل للذين آمنوا.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٣٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٨٨.

(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٠٣.
وقد ردوا على هذا بأن الوقف لو كان صحيحًا لقال تعالى «تقتلونه» بالنون. فلما جاء بغير نون علم أن الفاعل في الفعل «لا» إذ هي نهيٌ، فهو مجزوم بها، فلا يجوز أن يفصل منه». انظر: كتاب إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري، ص ٨٢٢، المكتفى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني، ص ٤٣٥-٤٣٦.

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم:١١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1].

ولم يكن حبها غريزيًا كامرأة العزيز التي كان حبها ليوسف عليه السلام فضيحة لها حين راودته عن نفسه فاستعصم، وسار بحديثها نسوة المدينة، وصارت أقصوصة في فم الرائح والغادي.

لكن في الظل أمًا تتحرق شوقًا إلى ضم وليدها وغمره بعطفها وشموله بحنانها، ويصور القرآن حالة الاضطراب النفسي الذي عاشته على هذا النحو: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص:١٠].

قال البيضاوي: «فارغًا صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون»[2].

وبقدرة الله جل جلاله أبى الصغير الرضاع من غير أمه ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص:١٢]؛ وأخذوا يفتشون عن مرضعة، وهنا تتدخل العناية الإلهية مرة أخرى فتقابلهم أخته التي خرجت لوعى تتلمس الأخبار حول مصير أخيها الرضيع ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

فرده الله إلى أمه الملتاعة ﴿كَيۡ نَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [طه:٤٠].

﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:١٣].

وتزداد يقينا في وعد الله تعالى، يقول البقاعي: «فكان كل ما أردته، فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع، فلما لم تقبل واحدةً منهن بالغ في الطلب، كل ذلك إمضاءً لأمري، وإيقافًا لأمره به نفسه لا بغيره؛ ليزداد العجب من إحكام السبب»[3].

وهنا تتيقن أم موسى أن ولدها سيكون له شأن في قابل الأيام.

ظل الصغير غذي نعمة وترف في قصر فرعون، بعيدًا عن معاناة قومه بني إسرائيل، وقد اختزل القرآن هذه الفترة فلم يتحدث عن شيء من تفصيلاتها، واختصر الفاصل الزمني من الرضاعة إلى بلوغ الأشد، وتحدث بعض المؤرخين عن تفصيلات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٤٤٦٦.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٢.

(٣) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٨.

أخرى في هذه المرحلة الزمنية، لكن ثمة إشكالية في الرواية التي أوردها البعض ومنهم الطبري، تقول الرواية: إن فرعون عندما حمله «أخذ موسى بلحيته فنتفها؛ فقال فرعون علي بالذباحين، هذا هو!! قالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني، أنا أضع له حليًا من الياقوت، وأضع له جمرًا؛ فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها فوضعت له طستًا من جمر؛ فجاء جبرئيل فطرح في يده جمرة؛ فطرحها موسى في فيه فأحرق لسانه فهو الذي يقول الله عز وجل: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾»[1]، وهذه الرواية التي ذكرها غير واحد من المؤرخين والمفسرين، ونسبها النيسابوري إلى الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما[2].

نصدق أن فرعون قد يزعجه ما فعله الطفل لأنه شخصية سلطوية مجنونة بالعظمة، إلا أن القصة لا يمكن أن تستقيم عقلا، فكيف لطفل أن يمسك بالجمرة المتوقدة؛ بل ويضعها في فيه؟! ولو اقتصر الاختبار على إقبال الطفل على الجمرة أو حتى على لمسها لكان ذلك أمرًا مستساغًا معقولا.

ثانيًا: قتل موسى عليه السلام للقبطي:

تدلنا الآيات على أن موسى عليه السلام ظل في بيت فرعون حتى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

ثم إن الله تعالى من عليه فآتاه ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[القصص:١٤].

والحكم والعلم ليسا بالنبوة؛ وإنما هي من إرهاصاتها؛ لأنه عليه السلام سيتورط بعد ذلك في قتل القبطي بطريق الخطأ.

إن القرآن يصور مشهد القتل ويوجز ما دار فيه من حوار بعيدًا عن الإجمال والتفصيل، فموسى عليه السلام ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص:١٥].

في وقت كان الناس فيه في بيوتهم كوقت القيلولة، أو بين المغرب والعشاء، أو حتى في معابدهم يوم عيدهم؛ بل قيل متنكرًا، على اختلاف بين المفسرين، كما اختلفوا حول المدينة وتعددت فيها الآراء[3]، لكن معلوم أن الحكام يتخذون لسكناهم بيوتًا خارج المدن على أطرافها، ليكونوا بمأمن من شعوبهم، وتلك من تدابير الطغاة والمستبدين وعاداتهم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٩٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٥٣٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٩.

﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

وكانت معركة تدور رحاها بين مصري وإسرائيلي، وبطبيعة الحال كان الثاني فيها أضعف الطرفين ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

والتظاهر بالضعف والوهن من صفات اليهود التاريخية، فحتى اللحظة نراهم يروجون لمظلوميتهم رغم ما وصلوا إليه من قوة وتقدم، لكنها سمات ملازمة لهم أنى لها أن تبرحهم مع تعاقب الليل والنهار!

لنا أن نتخيل موسى عليه السلام في هذه اللحظة وهو يسترجع شريط الذكريات القاسية، يستحضر استضعاف قومه وتذبيح الأبناء واستحياء النساء على يد الفراعين، وكيف ألقته أمه في اليم خوفًا عليه من الذبح، وكأن البحر أرق فؤادًا من هؤلاء المستبدين ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر:١١-١٢].

نعم عاش عليه السلام في بيت فرعون؛ لكن قضيته كانت تعيش معه ولم تتركه، ولم تغيره النعمة كما تفعل بالكثيرين الذين يتخلون عن مبادئهم بإقبال النعمة عليهم متناسين أصولهم.

هذا أحد بني جلدته الذين طالهم ظلم الفراعين -أو هكذا ظن موسى عندئذ- يستنجد به عليه السلام لإنقاذه من أحدهم فلا يتردد في نجدته، ويبدو أن الغضب قد سيطر عليه بشكل كبير ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥].

وأيًا كان تعريف الوكز -على النحو الذي أوردناه سلفًا- فقد كانت النتيجة قتل المصري وبسرعة تفيدها الفاءان في قوله عز وجل: (فوكزه - فقضى)، وعندها أسقط في يد موسى عليه السلام و﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

وهذا يعني أنه لم يكن يقصد القتل بحالٍ من الأحوال؛ لكن نزغ الشيطان في يده، وهو ما جعله يستغفر ربه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص:١٦].

ثم أخذ على نفسه العهد والميثاق ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص:١٧].

وبعض المفسرين[1] على أن المقصود بالمجرمين في الآية السابقة هم فرعون وقومه الذين ساموا بني إسرائيل سوء العذاب، لكن السياق يحتمل أن يكون المقصود هو الإسرائيلي الذي استغاثه ثم تبين بعد ذلك أنه غويٌّ مبينٌ، ويدل على ذلك ما حدث بعد ذلك عندما تبين موسى عليه السلام أن الإسرائيلي لم يكن مستحقًا للمساعدة وإلا لما ترك نجدته في المرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٢.

الثانية، ولو كان مستحقًا ما تردد لحظةً في إجارته.

قتل المصري في سورة غضب موسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

وبينما هو كذلك إذا بالإسرائيلي نفسه ﴿ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨].

فبالأمس تسببت في مقتل المصري، واليوم تستعديني على آخر.. ويبدو أن الإسرائيلي استمد بعض القوة من وجود موسى عليه السلام فشرع في قتل عدوه ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩].

وتظهر الآيات أن القبطي كان على علم بما فعله موسى عليه السلام مع المصري السابق قتله وهو ما جعله يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

اضطرب موسى عليه السلام كثيرًا وأحس أنه أصبح هدفًا لكل المصريين انتقامًا لقتيلهم، ويبدو أن خبر القتيل وصل إلى فرعون الذي أمر بإحضار ربيب نعمته بعد أن عزز شكوكه التي ساورته يومًا بعد يوم؛ فقيض الله عز وجل له رجلا جاءه ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠].

فجأة وجد موسى عليه السلام نفسه بين خيارين كلاهما فيه مشقة كبيرة على نفسه:

- إما أن يظل في مصر ليلقى مصيرًا مجهولا غالبه القتل، أو تعرف حقيقته ويذوق الويلات كغيره من الإسرائيليين.
- وإما أن يتركها بما فيها من ظلم واستعباد حتى يأذن له الله بالعودة.

فكان الخيار الثاني.

إلى هنا انتهت مرحلة القصر والترف، وبدأ عليه السلام مرحلة أخرى من المعاناة والشطف؛ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:٢١].

وهنا يلجأ كعادته إلى ربه وخالقه تعالى الذي يلتجأ إليه وحده في النوازل والملمات. يذكره ربه بعد ذلك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]

ثالثًا: موسى عليه السلام في مدين:

يصف القرآن جانبًا من رحلة موسى عليه السلام الشاقة هروبًا من المصريين، ولنا أن نتخيل رجلا عاش منعمًا مترفًا يخرج من وطنه خائفًا إلى مكان مجهول لا يعرفه، يضرب القفار بلا رفيق ولا أنيس، يلتحف السماء ويفترش الأرض، ويتوجه إلى مدين

شمال غرب الجزيرة العربية، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢].

وكعادته يلجأ إلى ربه في وقت الشدة فيأتيه الفرج.

ما إن وصل عليه السلام إلى مساكن مدين حتى وجد الناس يسقون ماشيتهم، ونظر فإذا امرأتان تنتظران انتهاء الرجال من السقيا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص:٢٣].

فأثار الموقف شفقته، فتوجه إليهما وسألهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

فأبت شهامته ونبله أن يتركهما يزاحمان الرجال ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص:٢٤].

ولأنه لا يترك مجالا للشيطان فقد دعا ربه عز وجل ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

فالافتقار إلى الله غنىً به عمن سواه، ومن تكفل به في صغره فأنجاه من فرعون إلى قصره، سيجعل له من كل ضيقٍ فرجًا، ومن كل همٍ مخرجًا.

جلس موسى عليه السلام يستظل من حرارة الشمس الحارقة وقد نسي المعروف الذي صنعه مع البنتين؛ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

وهنا اختبار جديد له ثبت فيه حياؤه وأمانته، كما أثبت بأسه وقوته.

عادت البنتان إلى أبيهما وقصتا عليه ما كان من الرجل الغريب الذي سقى لهما رغم الزحام الشديد؛ فأرسل في إحضاره، وحسب ما يبدو من الآيات فإن موسى عليه السلام قد آنس من صاحب البيت؛ ولذا حكى له ما حدث معه من قتل المصري والخروج من مصر، وهكذا الأرواح، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

فلا سلطان لفرعون على هذه الأرض التي نعيش فيها.

تكليف موسى عليه السلام بالنبوة

أتم موسى عليه السلام المدة التي اتفق على قضائها مع الرجل الصالح ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

فالآيات تتحدث عن عودته إلى مصر ومروره بـ(جبل الطور) بسيناء، والمسافر يأنس بالنار في الصحراء الموحشة ليلا، لكونها تبدد بعض ما يداخله من خوف غريزي، ومن عادة أهل الصحراء أن يوقدوا النار لجلب الضيفان وهدايتهم في الظلمات، فذهاب موسى عليه السلام إلى النار -كما حكى القرآن عنه- كان لسببين:

الأول: السؤال عن الطريق التي سيسلكونها في عودتهم إلى مصر، فهو لم يغادر مدين منذ ثماني سنوات أو عشر، ومن ثم يلزمه الاهتداء في سيره بمن لهم دراية بالطرق.

الثاني: الإتيان ببعض النار لغرض التدفئة بالليل لاسيما أن هذه المنطقة معروفة حتى الآن ببرودتها الشديدة، حتى إن الثلوج لتتراكم عليها في بعض فترات الشتاء.

وهما الغرضان اللذان نصت عليهما الآيات الأخرى: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠].

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧].

ذهب موسى عليه السلام إلى النار -كما تحكي الآيات- لكنه لم يجد النار كما تصورها؛ بل كانت المفاجأة التي جعلته يضطرب، ويصور القرآن ما حدث: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١١-١٦].

ولشدة الأمر وصعوبته جاء رد فعل موسى عليه السلام طبيعيًا وغريزيًا، فقد خاف عندما أمره ربه تعالى بأن يلقي عصاه فصارت حية عظيمة، فعندها ولى مدبرًا لدرجة أنه لم ينظر خلفه كما تقول الآيات ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ من هول المفاجأة، وهو ما تشير إليه أكثر من آية: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه:٢١].

و﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

قال ابن عطية: «فلما رآها موسى رأي عبرةٍ ولى مدبرًا ولم يعقب؛ فقال الله تعالى

له: خذها ولا تخف، وذلك أنه أوجس في نفسه خيفة، أي: لحقه ما يلحق البشر»[1].

وأراد المولى عز وجل أن يهدئ من روع نبيه عليه السلام فخاطبه قائلا: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:٣١].

يقول البقاعي: «أي: التفت وتقدم إليها ولا تخف، ثم أكد له الأمر لما الآدمي مجبولٌ عليه من النفرة، وإن اعتقد صحة الخبر بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: العريقين في الأمن كعادة إخوانك من المرسلين»[2].

ولأن الله عز وجل يعلم طبائع النفوس التي جبلت عليها؛ فقد كان لابد من استصحاب موسى عليه السلام لمعجزات حسية يخضع لها الفراعنة المعاندون، فوهبه معجزات، منها: معجزة العصا التي تحولت إلى حية مخيفة تسعى للدرجة التي أخافت موسى عليه السلام نفسه، ومعجزة اليد التي يدخلها في جيبه فتخرج مضيئة شاهقة البياض في مشهد تنخلع له القلوب النقية، يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»[3].

وفي القرآن الكريم حديث -كما أسلفنا- عن الحوار الذي دار بين موسى وربه تعالى، وكيف كان موسى عليه السلام يطنب في الكلام استئناسًا بربه عز وجل، وحديث آخر عن معجزاتٍ سبعٍ أخرى غير هاتين الآيتين لتبلغ تسع آيات واضحات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء:١٠١].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

قال القرطبي: «هي العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البينات التوراة وما فيها من الدلالات»[4].

وتنص الآيات على أن المستهدف من الآيتين فرعون وقومه، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

وفي موضع آخر ﴿فَذَٰلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:٣٢].

صدر التكليف الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤، النازعات:١٧].

وليس فرعون فقط إنما جميع قومه، يبرز ذلك الخطاب الإلهي لموسى عليه السلام

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢.
(٢) نظم الدرر ١٤/ ٢٨٠.
(٣) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٠.

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ [الشعراء:١٠-١١].

دعا موسى عليه السلام ربه مستعينا به كعادته في الشدائد والكرب طالبًا منه أن يشرح صدره بالطمأنينة، وييسر له أمره حتى يتمكن من أداء دعوته ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾ [طه:٢٥-٢٦].

وكان له رجاءان لتتم المهمة على أفضل ما يكون:

الأول: أن يحل عقدة لسانه حتى يتمكن من التبليغ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾ [طه:٢٧-٢٨].

الثاني: أن يشد أزره بأخيه هارون ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ [طه:٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية فقال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه:٣٦].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾ [القصص:٣٥].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم:٥٣].

والحقيقة أن الطلب كان محل جدال كبير، فقد اختلف المفسرون في ماهية العقدة، وهل هي معنوية أم مادية بسبب من الجمرة؟

وقد اختلفوا فيها على قولين، أوجزهما الفخر الرازي على هذا النحو:

الأول: كانت العقدة خلقة الله تعالى؛ فسأل الله تعالى إزالتها.

الثاني: السبب فيه أنه عليه السلام أخذ الجمرة فجعلها في فيه. وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان؛ لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة، واللسان آلة الذكر، فكيف يحترق؟! ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمرود، وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور فكيف يحترق هنا؟!

ومنهم من قال: احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة. ومنهم من قال: احترق اللسان دون اليد؛ لأن الصولة ظهرت باليد، أما اللسان فقد خاطبه بقوله: يا أبت. ورأي أنهما احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة[1].

ونظرًا لتهافت قصة التمرة والجمرة التي ذكرها بعض المفسرين على النحو الذي تقدم؛ فالراجح أن العقدة لم تكن حسية في لسانه؛ وإنما قصد بها -والله أعلم- الرهبة التي ألمت به من التكليف وهذا الأمر تعضده الآيات التي أشارت إلى خوفه عليه السلام في غير موضع؛ بل بلوغه درجة الجري من

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٤٣-٤٤ بتصرف.

شدة الخوف، وعليه يكون المراد من قوله تعالى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

هو: لا يكاد يأتي ببينة أو حجة حسية على صدق رسالته، ويكون المراد بالفصاحة في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:٣٤] هي الفصاحة الناجمة عن الشجاعة ورباطة الجأش، فمن الناس من يفقد القدرة على توصيل فكرته في الأوقات العصيبة... والله تعالى أعلم.

أعرب عليه السلام عن خوفه من هذا التكليف فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٤].

وفي موضع آخر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص:٣٣].

قال البيضاوي: «ولهم علي ذنبٌ: أي تبعة ذنب...والمراد قتل القبطي، وإنما سماه ذنبًا على زعمهم...فأخاف أن يقتلون به قبل أداء الرسالة، وهو أيضًا ليس تعللًا؛ وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما إن ذاك استمدادٌ واستظهار في أمر الدعوة»[(١)].

والبيضاوي هنا كغيره من المفسرين الذين يحتاطون في نسبة الذنب إليه عليه السلام تأدبًا رغم أنه قد استغفر ربه فغفر له ما كان من قتل القبطي.

إن خوف موسى عليه السلام هنا خوف مشروع تقتضيه الطبيعة البشرية، وليس خاصًا به وحده دون غيره، وفي آية أخرى أن هارون عليه السلام قد أعرب عن خوفه هو الآخر ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٥-٤٦].

فالخوف في ذات الأنبياء ليس بالعيب وهو الأمر الذي قرره القرطبي عندما ذهب إلى القول بأن «الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء»[(٢)].

ويقول الإمام ابن تيمية: «وقول القائل هذا بمنزلة هذا، وهذا مثل هذا، هو كتشبيه الشيء بالشيء يكون بحسب ما دل عليه السياق، لا يقتضي المساواة في كل شيء، وكذلك هنا هو بمنزلة هارون فيما دل عليه السياق، وهو استخلافه في مغيبه كما استخلف موسى هارون، وهذا الاستخلاف ليس من خصائص علي؛ بل ولا هو مثل استخلافاته، فضلًا أن يكون أفضل منها، وقد استخلف من علي أفضل منه في كثير من الغزوات، ولم تكن تلك الاستخلافات توجب تقديم المستخلف على علي إذا قعد معه، فكيف يكون موجبًا لتفضيله على علي؟ بل قد استخلف على المدينة غير واحد،

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٩٢.

وأولئك المستخلفون منه بمنزلة هارون من موسى من جنس استخلاف علي»[1].

والحديث كما رأينا يدل دلالة واضحة أن الاستخلاف هنا يثبت أفضلية وتكريمًا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا يثبت له خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، وتنقل لنا كتب الأحاديث والسير أن النبي استخلف عددًا من الصحابة الكرام في مناسبات عدة، منهم صحابة مشهورون وغير مشهورين، من هؤلاء المستخلفين: عثمان بن عفان في غزوة ذي أمر بنجد، وعبد الله بن أم مكتوم الضرير رضي الله عنه الذي استخلفه في غزوة بدر الكبرى، وسباع بن عرفطة رضي الله عنه، وسعد بن عبادة رضي الله عنه في غزوة الأبواء، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه في غزوة بواط، وأبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه في غزوة العشيرة، وزيد بن حارثة رضي الله عنه في غزوة بدر الأولى، وأبو رهم كلثوم بن حصين الغفاري رضي الله عنه، ورغم ذلك لم يقل أحد إن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخلف عثمان، ومن ثم تحق له خلافته قبل أبي بكر وعمر، ولا طالبت قبائل هؤلاء الصحابة وآلهم بحقهم في الخلافة بناء على استخلافهم السابق.

(١) منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٣٠-٣٣٢.

دعوته عليه السلام لفرعون وقومه

أولًا: معالم دعوته عليه السلام:

استجاب موسى عليه السلام لتكليف ربه تعالى وأتى فرعون يطلب إليه ترك بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، ولم لا وقد سامهم العذاب الأليم سنوات طويلة ذبح فيها الأبناء واستحيى النساء؛ وجاءت ساعة المواجهة فزاد فرعون من تكبره وتجبره ونادى فيمن حوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

إنه لم يكتف بالكفر وإنكار وجود الله؛ بل لج في طغيانه وادعى الألوهية ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

وأمعن الفرعون في صلفه وغروره، ونادى في قومه قائلا: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١].

فبدلا من شكر المنعم الذي وفر له أسباب المعيشة الكريمة من أنهار تفيض بالخيرات فتخرج أزواجًا من نبات شتى؛ نسب هذا الفضل إلى نفسه وراح يدعي أنه الإله الأحق بالعبادة دون الله تعالى،

وأراد أن يدلس على من حوله من الملأ أصحاب المصالح فطالب موسى بآيات محسوسة ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥٣].

وكأن آيات فرعون في الخلق مبهرة ظاهرة للعيان.

ثم بلغ به الجنون مداه حين طلب من هامان طلبًا عجيبًا مستحيلا لكنه وجد من يصدقه ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف:٥٤].

لقد قال لوزيره هامان الذي يزين له الجنون: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

ولخص رؤيته العقدية والسياسية في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

إنه جنون العظمة الذي يجعل المهووسين والموتورين يبيدون كل شيء من أجل الكرسي!

إن طغيان فرعون وادعاء الألوهية لم ينشأ من فراغ؛ وإنما كان نتاج مساندة الملأ الذين يزينون للحاكم سوء عمله ليحافظوا على مكانتهم ومصالحهم التي يدورون معها أينما كانت، ولا عجب أن تتطابق آراء الملأ مع آراء الفرعون، فاتهام موسى بالسحر لم يقتصر على الحاكم المدعي للألوهية دون الملأ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

بينما ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٢].

حتى العقاب الذي سنه فرعون لمن يخرج عن نطاق عبادته جاء بإيعاز ممن حوله، ففي القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف:١٢٧].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٥].

في هذه الظروف كان على موسى عليه السلام أن يدعو فرعون إلى أمرين كما في الآيات:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ

﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

[طه:٤٧-٤٨].

﴿قَالَ كَلَّآ ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾

[الشعراء:١٥-١٧].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۖ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

[الأعراف:١٠٤-١٠٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

[الزخرف:٤٦].

فإرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون كما تشير الآيات كان لغرضين: دعوته وقومه إلى الإيمان بألوهية الله الخالق بدلا من عبادة الفراعين، وتخليص بني إسرائيل من أسر فرعون وعذاباته.

يقول ابن جزي: «فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وتسريح بني إسرائيل» [(١)].

وكلا الأمرين ليسا في مصلحة فرعون؛ لأن فيهما تهديد لملكه المستبد العضوض ومكانته التي لا يمكنه أن يتخلى عنها بحال ليتساوى مع الدهماء وأراذل القوم كما كان ينظر إليهم، فضلا عن خوفه من مكر بني إسرائيل به إذا خرجوا من مصر؛ إذ كان بإمكانهم أن يتحدوا مع أعداء مصر في الخارج.

ثمة إشكالية تثار حول رسالة موسى عليه السلام تتعلق بشريحة المدعوين، فهل أرسل إلى بني إسرائيل فقط أم إلى المصريين أيضًا؟!

إن موسى -والله أعلم- لم يرسل إلى عامة المصريين؛ بل إلى بني إسرائيل فقط، لكنه لم ينس أن يدعو فرعون وقومه إلى التوحيد بدلا من عبادة الفرعون، فما كان له أن يفوت فرصة يدعو فيها إلى الله وينكر عليهم ضلالهم، يقول الطاهر ابن عاشور: «والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدل على أن موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمة مستقلة؛ بأن يبث فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرانيه وأيضًا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بني إسرائيل» [(٢)].

فشريعة موسى عليه السلام قصد بها

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣٠.

بنو إسرائيل دون غيرهم، وفي القرآن آيات تعضد هذا الرأي بقوة، وتقول بخصوصية الرسالة واقتصارها على بني إسرائيل، منها:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢]

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة:٢٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٥-٨].

ففي الآيتين الأولى والثانية يقطع القرآن بأن التوراة نزلت وتوجه خطابها التكليفي إلى بني إسرائيل، وفي الآية الثالثة بيان تكليف الله عز وجل له بدعوة قومه وإخراجهم من الظلمات إلى نور الإيمان وتذكيرهم بأيام الله، وشكر المنعم الذي أنجاهم من عبودية فرعون واسترقاقه لهم.

ثانيًا: أساليب دعوته عليه السلام:

تبوأت قصة موسى عليه السلام من القرآن مكانة لا تدانيها قصة أخرى، وأظهرت الآيات الكريمة كيف نوع موسى من أساليب دعوته لتتناسب مع الواقع وتطوراته وأحداثه المتلاحقة منذ أن تم تكليفه من رب العزة تعالى وحتى خروجه مع بني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه.

وكانت آيتا العصا واليد أول المعجزات التي أيد بها موسى عليه السلام في دعوته لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٣٢].

ثم عزز الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات، يقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل:١٢].

لكن البعض يعد الآيات المعجزات التي

تحدث عنها المؤرخون والمفسرون أكثر من تسع على النحو الذي سيبينه المبحث التالي.

وقد عرض القرآن لأهم الأساليب الدعوية التي اتبعها موسى عليه السلام، ومنها:

١. توظيف الطاقات البشرية.

على النحو الذي ورد في المبحث السابق، فعندما كلف الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة طلب إليه أن يشد أزره بأخيه هارون قائلًا: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه:٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية من الله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه:٣٦].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص:٣٥].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم:٥٣].

ويمكننا من خلال هذه الآيات أن ندرك كيف عمل موسى عليه السلام على توظيف قدرات أخيه في الدعوة للوصول إلى أقصى استفادة ممكنة، وحسب نص الآيات فقد أراد توظيف قدرة هارون الكلامية في تبليغ الدعوة والدفاع عنها، وفي ذلك درس للدعاة الذين يجب أن يكون هناك تكامل بينهم ويقوم كل منهم على ثغرة.

٢. اللين والشدة.

يخبرنا القرآن كيف أن الله تعالى طلب من موسى وهارون أن يعاملا فرعون بالحسنى ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٤].

يقول البقاعي: «فقولا له قولًا لينًا لئلا يبقى له حجة، ولا يقبل له معذرة لعله يتذكر ويعلم أن الله ربه، وأنه قادر على ما يريد منه، فيرجع عن غيه فيؤمن، أو يخشى: أي أو يصل إلى حال من يخاف عاقبة قولكما لتوهم الصدق فيكون قولكما تذكرة له فيرسل معكما بني إسرائيل»[(١)].

إن طبيعة المرحلة آنذاك كانت تتطلب أن يلين موسى عليه السلام قوله لفرعون عسى أن يهديه إلى ربه، كما أمرهما بأن يقولا ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه:٤٧].

وفي حديثه تعالى عن السلام ترغيب له وطمأنة لقلبه وقلوب قومه قاطبة، كما ينقل القرآن صيغة أخرى للين في قول الله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات:١٨-١٩].

فماذا كان رد فعل فرعون المستبد

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٩٠.

وقومه؟!

أبى فرعون واستكبر ورمى موسى بتهم منها القديم المكرر كالكذب والسحر والجنون، ومنها غير ذلك، نحو:

- التآمر لإخراجهم من أرضهم: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].
- الكذب والتدليس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].
- السحر والجنون: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات:٣٨-٣٩].
- إضلالهم عن دين آبائهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].
- القول ببشريته: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون:٤٧].

لكن الحقيقة الواضحة أن الذي جعلهم يحجمون عن الإيمان بالوحدانية هو الكبر.

وقد أشار القرآن إليها في مواضع منها:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].
- ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:٤٦].
- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

لقد شق على نفس فرعون أن يؤمن لعبدٍ من بني إسرائيل الممتهنين أن يدعي النبوة ويطلب تعبيد الناس لرب سواه، فكيف يكون مصير ملكه العريض إذا آمن بوحدانية موسى؟!

أما الملأ فقد خافوا على مصالحهم المرتبطة بالبلاط الفرعوني؛ ومن ثم تواطأ الجميع على موسى؛ لأنه يهدد مصالحهم رغم يقينهم بنبوته!

ولما لم يجد فرعون وسيلة ناجعة لرد موسى عليه السلام وصرفه عن الرسالة هدد قائلًا: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وعندما قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١].

رد عليه موسى قائلا: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

قال أبو عبيدة: «أي: مهلكًا»[1]، فمقام

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٣٩٢.

اللين في الدعوة يختلف عن مقام الشدة في المدافعة، ومقام الترغيب يختلف عن مقام الترهيب.

ولما لم يجد موسى عليه السلام فائدة ترتجى من وراء فرعون وقومه بعد إصرارهم على الكفر قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

وهنا بدأت موجات العذاب تجتاح الفراعنة على النحو الذي سيفصله المبحث التالي عن آيات موسى عليه السلام ومعجزاته.

٣. قوة الحجة والاستدلال العقلي.

تنبئ الآيات القرآنية عن قدرة موسى عليه السلام على الجدل وقوة الحجة، كما تكشف عن صدقه مع نفسه وغيره، فلقد كان أول ما قاله فرعون لموسى حين دعاه إلى التوحيد: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣].

فأجاب موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:٢٤].

ثم أمعن فرعون في الضلال فاتهم موسى بالجنون ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٥-٢٧].

فتوجه موسى بالخطاب هذه المرة إلى الملأ بعد أن كان سجالًا مع فرعون ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨].

وقريب من ذلك ما ورد في سورة طه ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٤٩-٥٥].

وينقل لنا القرآن أنه أراد إحراج موسى عليه السلام أمام الملأ وتذكيره بتربيته داخل قصره وهو الأمر الذي يستوجب الشكر والخضوع لا الجحود والخروج، كما ألمح إلى قتل المصري وهروبه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء:١٨-١٩].

فأقر موسى بفعلته ولم ينكرها:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٠-٢٢].

رغم قوة حجة موسى مع فرعون إلا أن الأخير لم يجد بدًا من التهديد بالسجن، وتلك عادة أهل الباطل عندما يضيق عليهم الخناق فلا يستطيعون تبرير أفعالهم أو مواصلة المجادلة بالباطل:

قال فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩]

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء:٣٠]

قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء:٣١]

وهنا بدأ موسى في إظهار الآيات:

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء:٣٢]
- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣٣]

ثم انتهى المشهد بإيمان السحرة، وربما أيضا بإيمان امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، فالقرآن لم يقص علينا شيئًا عن الوقت الذي آمن فيه هؤلاء برسالة موسى عليه السلام.

مرت الأيام والفراعنة يراوغون موسى، ويعدونه بأن يؤمنوا له ويتبعوا دينه ورسالته قائلين: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٣٤].

فابتلاهم الله بالعذابات المختلفة على النحو الذي ذكرناه في المبحث الخاص بالمعجزات، لكنهم لم يؤمنوا في النهاية ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٣-٨٩].

آيات موسى عليه السلام ومعجزاته

من الناس من لا يؤمن لنبي ولا برسالة إلا برؤية آيات معجزات حسية ملموسة يراها رأي العين، فإذا جاء نبي من الأنبياء ومعه معجزة من المعجزات الباهرة فلا يملك أصحاب العقول والأفهام الحصيفة إلا أن يؤمنوا.

يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»[1].

ويقول صاحب الظلال: «وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسير حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه. وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة»[2].

لكن الحقيقة أن هناك على مر التاريخ من ينكر المعجزات والآيات استكبارًا في الأرض وعتوًا كما فعل المكذبون من قوم نوح وصالح وغيرهم. وفي القرآن الكريم ثمة إشارات إلى بعض الآيات المعجزات التي زود الله تعالى بها موسى عليه السلام في مواجهة فرعون وقومه الذين استخفهم فرعون فأعماهم عن الحق، ثم في مواجهة بني إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل وجدالهم جدالا عقيمًا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [النساء:٤٦].

لقد ورد في موضعين بالقرآن الكريم أن الله عز وجل عزز نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

لكنك إذا ما عددت الآيات المعجزات التي تحدث عنها المؤرخون والمفسرون لوجدتها تتعدى التسع.

لكن تفسيرًا مغايرًا يفسر الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعيدًا عن فكرة المعجزات ويقصد بها بعض الأحكام التي جاءت بها شريعة موسى عليه السلام[3].

ثمة خلاف في تحديد الآيات التسع، فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها:

(١) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٦.

«يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات. وقال الضحاك: إلقاء العصا مرتين عند فرعون، ونزع يده، والعقدة التي كانت بلسانه، وخمس آيات في الأعراف: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقال آخرون نحوا من هذا القول، غير أنهم جعلوا آيتين منهن: إحداهما الطمسة، والأخرى الحجر.

ومنهم من جعلوا اثنتين منهن: إحداهما السنين، والأخرى النقص من الثمرات.

ومنهم من جعلوا السنين، والنقص من الثمرات آية واحدة، وجعلوا التاسعة تلقف العصا ما يأفكون»[1].

وكلها -كما رأينا- مما ورد في القرآن ذكره.

أما الطاهر ابن عاشور فقال إنها: «بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، والقحط»[2].

وجمعها الفيروزآبادي في قوله[3]:

عصًا، سنةٌ، بحر، جراد، وقمل

دمٌ، ويدٌ، بعد الضفادع طوفان

بدأت المعجزات أو الآيات المعجزة لموسى عليه السلام باثنتين كما في الآية ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص:٣٢].

والبرهانان هنا حسب ما ذكر القرطبي: العصا واليد[4] لكن تكذيبهم فاق كل التصورات ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢].

وهنا أرسل الله عز وجل عليهم من الآيات ما فيه عذابهم.

يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

ليس هذا فحسب، لكن هناك آيات أخرى عني بها بنو إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل، منها:

- **الموت بالصاعقة ثم الإحياء:** ففي القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

(١) المصدر السابق ١٧/ ٥٦٤.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٥.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٧٠٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٨٥.

❁ **الغمام والمن والسلوى:** كما في قول الله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧].

❁ **الابتلاء بالرجز:** كما في قوله عز وجل: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٩].

❁ **تفجير المياه:** يقول تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠].

❁ **إحياء قتيل بني إسرائيل:** يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٢-٧٤].

❁ **رفع الجبل فوقهم:** ففي القرآن ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف:١٧١].

على أن البعض قد اعتبر تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام أعظم معجزة له، والحقيقة أنه وإن كان في التكليم تكريمًا إلهيًا غير مسبوق لنبيه بيد أنه لا يعتبر معجزةً في مواجهة قومه، ذلك أن ما دار بجانب الطور أمر يخصه لم يشهده غيره، ولا يمكن تصديقه إلا ممن آمن له بالفعل، وإلا فكيف لمن كذبه أن يؤمن بتكليم ربه، في حين يكذب بالآيات الأكثر ظهورًا كالعصا واليد.

يتجلى التأثير الإيجابي لهذه الآيات الإلهية المعجزة في قصة سحرة فرعون الذين جيء بهم لمجابهة معجزة عصا موسى عليه السلام، فجاؤوا وليس أحد أحرص منهم على إرضاء فرعون ونيل جائزته وقربه، لكن المعجزة التي رأوها -وهم من أسحر الناس- جعلتهم يقرون بنبوة موسى إذ لا قبل لهم بما جاء به من معجزة العصا الحقيقية لا التي تعتمد على إبهار الناس على غير الحقيقة، وينقل لنا القرآن كيف تحول هؤلاء السحرة في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن

﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٤٩-٥١].

وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها!

موسى عليه السلام والسحرة

لم تثمر دعوة موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالله الخالق بعد أن تساءل الأخير بعنجهية ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه:٤٩].

ورد موسى بثقة المؤمن بربه وخالقه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٥٠].

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:٢٤].

واشتد النقاش وتساءل فرعون مرة أخرى في صلف، فأجاب موسى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه:٥٣].

وهنا لم يجد فرعون بدًا من اللجوء إلى سلطته وقوته الغاشمة التي لا يعرف غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

لكن موسى عليه السلام فاجأه مرة أخرى بتحدٍ ملموس ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء:٣٠].

ولم يتوقع فرعون حجم التحدي فقال

من فوره: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء:٣١].

وهنا ألقى موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨].

كانت الآيتان مبهرتين لفرعون ومن حوله؛ لكنه اعتاد الاستكبار واعتادوا المذلة والمهانة، ومن ثم ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

ففرعون هنا يبحث عن غطاء وظهير له في مواجهته مع موسى عليه السلام بعد أن اتهمه بالسحر، وتلك أول مرة يقر بأن هناك شعبًا له سيادة وقرار؛ بل يحدثهم بصيغة لا عهد لهم بها ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟! ولن يعدم البطانة التي تسول للحاكم كل الشرور ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

اتفق الطرفان على مواجهة علنية في يوم معلوم يحشد فيها كل طرف قوته ويشحذ همته ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩].

وسواء أكان يوم الزينة يوم عيدٍ لهم، أم سوقا كانوا يتزينون فيه[1] أم كان يوم احتفالهم بفيضان النيل[2] ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

إن فرعون هنا يحشد الناس ويشحنهم معتمدًا على إعلامه المضلل الذي جعل من موسى النبي عليه السلام ساحرًا مجنونًا، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

ويبدو أنه اعتاد تسخير شعبه دون مقابل في حين تكتظ خزائنه بالأموال المكدسة، ومن ثم اشترط السحرة أن يتقاضوا أجرًا عن هذا العمل ﴿قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء:٤١-٤٢].

وهكذا الحكام الجائرون لا يتركون طريقًا إلا سلكوه في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض.

وبدأ المشهد الأول من المواجهة العلنية بين موسى عليه السلام والسحرة الذين جاؤوا لإبطال سحره، وخيره السحرة ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٤٦.

وهنا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يونس:٨٠].

ونشط السحرة للمنازلة وكلهم ثقة أنها محسومة لا محالة لهم، ولم ينسوا أن يقسموا بفرعون أن الغلبة ستكون لهم، فليس أحب إليهم في هذا الآن من إرضاء الطاغية وإعلاء شأنه بين قومه ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء:٤٤].

ويبدو أن موسى عليه السلام هو الآخر لم يتوقع أن تظهر عصي السحرة كثعابين أو حيات، والحقيقة أنها لم تكن حيات حقيقية لكن خيل للحاضرين من السحر أنها تسعى، يحكي القرآن ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١١٦].

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه:٦٦].

يقول ابن عطية: «والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تنتقل بحيل السحر وبدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها، وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السعي فإنه لا يوصف بالسعي إلا من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إلى أنها لم تكن تتحرك؛ لكنهم سحروا أعين الناس، وكان الناظر يخيل إليه أنها تتحرك وتنتقل»[1].

لكن الآيات توضح أن موسى عليه السلام قد خاف وهاله سعي العصي؛ ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه:٦٧].

قال البيضاوي: «فأضمر فيها خوفًا من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلة البشرية، أو من أن يخالج الناس شكٌّ فلا يتبعوه»[2].

وهنا يأتي التثبيت الإلهي له فيزداد ثقة بربه ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٨].

وترصد آيات سورة يونس تغير لهجة موسى عليه السلام بعد التثبيت حيث قال لهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨١-٨٢].

يقول صاحب الظلال: «لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق، ومعهم الباطل. معك العقيدة، ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى، وهم يخدمون مخلوقًا بشريًا فانيًا مهما يكن طاغيةً جبارًا»[3].

ويأتي النداء مرة أخرى ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥١.
(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٣٢.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٢.

﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩].

وامتثل موسى عليه السلام للأمر فألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:١١٧].

وهنا فجأ السحرة أن الحية العظيمة قد ابتلعت حبالهم وعصيهم فلم يبق لها أثر على الأرض؛ فأيقنوا أن عدوهم ليس بالساحر العليم كما قال فرعون، لكنه نبي جاء بمعجزة باهرة واضحة، فلا يعرف السحر إلا من يمارسه، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢].

لقد تولد لديهم إيمان يقيني لا يقبل الشك بنبوة موسى عليه السلام، فأعلنوا إيمانهم دون النظر إلى ردة فعل فرعون الذي لا يعرف الاستسلام ويأبى الهزيمة؛ لأن نفسه المتكبرة لا تستسيغ أن يؤمن لنبي، فضلا عن أن يكون من بني إسرائيل الذين يستعبدهم ويستعملهم في أشق الأعمال وأحطها، ولذلك فقد صاح فيهم متهمًا إياهم بالتواطؤ مع موسى ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣].

وهكذا أهل الباطل لا يسمعون إلا صوت أنفسهم.

وإمعانًا في تضليل الجماهير المحتشدة يتهم السحرة بالتآمر عليه مع موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١].

ويتوعدهم غاضبًا ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧١].

وهو التهديد الذي كان كفيلا بإثناء هؤلاء عن الدين الجديد، أو حتى المواربة بكتم الإيمان إلى وقتٍ تقوى فيه شوكة نبي الله ومن معه؛ لكن الإيمان قد تغلغل في قلوبهم في لحظة صدق مع أنفسهم ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٥٠-٥١].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٦].

يقول ابن قيم الجوزية: «ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء»[1].

إن هذا النموذج الإيماني الفريد الذي ضربه سحرة فرعون ليؤكد أن القلوب الصافية من الخصوبة بحيث ينبت فيها الإيمان ويترعرع؛ بل ويثمر في لحظات

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤/ ١٣٨٩.

معدودات، فها هم يتحولون إلى مجابهة فرعون بجبروته وصولجانه قائلين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٢-٧٦].

قال البقاعي: «أي إنما حكمك في مدتها على الجسد خاصة، فهي ساعة تعقب راحة، ونحن لا نخاف إلا ممن يحكم على الروح وإن فني الجسد، فذاك هو الشديد العذاب، الدائم الجزاء بالثواب أو العقاب»[1].

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كل فصولها ومراحلها تمثل صورة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، لكن ذروته تتجلى في هذا المشهد المفعم باليقين حين يتمكن الإيمان من القلب، وسيظل سحرة فرعون مضرب المثل في الإيمان بالحق والدفاع عن العقيدة، كما سيظل فرعون مثالا حيًا للتكبر والعجب بالرأي واتباع هوى نفسه التي أوردته المهالك.

نجاة موسى عليه السلام ومن معه

ظل فرعون وقومه يكابرون ويجادلون رغم يقينهم بصدق موسى ودعوته ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٤].

وبلغ بفرعون الجنون مداه حيث ادعى الألوهية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

وهذا حال المهووسين بالسلطة لا ينظرون إلا في مرآة أنفسهم فلا يرون غيرها، وإن استعانوا فإنما يستعينون برؤوس جهالٍ كهامان وغيره.

لم يقر فرعون بالهزيمة أمام موسى عليه السلام والسحرة وازداد عتوًا، وازداد الفراعنة تحريضًا على الإسرائيليين ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف:١٢٧].

وزادوا في عتوهم وتحريضهم وقرروا مواصلة الإبادة الجماعية لأبناء المؤمنين ﴿فَقَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [غافر:٢٥].

(١) نظم الدرر ١٢/ ٣١٣.

لعلهم يرجعون، فلم يجد موسى سوى مطالبة قومه بالصبر إلى يوم يفتح الله عز وجل عليهم بالتمكين والنصر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

فاض الكيل بموسى عليه السلام ومن معه من تكذيب فرعون وقومه الذين أعلنوا في تحدٍ صارخ لنبوته ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢].

فأرسل الله تعالى على الفراعنة سوء العذاب، وجاءتهم آيات العذاب الواحدة تلو الأخرى لعلهم يرجعون، ويسجل لنا القرآن الكريم صورًا شتى من هذه العذابات التي ذكرنا بعضها عند الحديث عن آيات موسى ومعجزاته.

يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٣].

ولما تضاعف عليهم العذاب لم يجدوا إلا أن يلجؤوا إلى موسى ليكشف عنهم الضر مع وعد منهم بأن يؤمنوا ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٥].

ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى نفعًا، ومن ثم يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها من هذا الذي يؤرق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسيًا أن الفكرة لا تموت وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم؛ فقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦].

إنه يتحدث إلى قومه كأنهم أصحاب قرار، والحقيقة أنهم لم يكونوا يومًا أصحاب قرار في هذا الحكم الاستبدادي؛ إنما أراد

أن يحشد الرأي العام كله ضد النبي الجديد ومن معه ليتوقفوا عن الإيمان به رغبًا أو رهبًا.. إنه يستعدي جزءًا من الشعب على جزءٍ آخر اختار الإيمان بالرسالة الجديدة.

ولأن الدنيا لا تعدم الخير مهما علا شأن الباطل وأهله؛ فقد انبرى رجل مؤمن في موطن الفساد ومعطن الاستبداد مدافعًا عن موسى عليه السلام ومتحدثًا بلغة العقل والمنطق، وقد قص القرآن ما كان منه.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر:٢٨-٣٤].

ضاق موسى عليه السلام بفرعون وقومه فدعا قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

وفي النهاية لم يؤمن له ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣].

وقد اختلف في المراد بالذرية في الآية، يقول البيضاوي: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفًا من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل: الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته على خوفٍ من فرعون وملائهم أي: مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية أو للقوم»[1].

حانت ساعة النجاة فجاء الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان:٢٣].

فالليل ستر لكل من فر من عدوٍ يتربص

(١) أنوار التنزيل ٣/ ١٢١.

به، وقوله تعالى ﴿لَيْلًا﴾ يرد الرواية القائلة إن اتفاقًا جرى على أن يترك فرعون موسى وقومه يخرجون من مصر حتى يتخلص من العذابات التي أحاطت بقومه غير أن فرعون حنث بعهده وأتبعهم هو وجنوده؛ ولو كان هذا الرأي صحيحًا لما نصحوا بالخروج ليلا كما نقل لنا القرآن الكريم، كما إن الرواية التي تذهب إلى أنه تبعهم بعد أن علم بأن نساء اليهود قد استعاروا الحلي من المصريات على أن يعيدوه ثم خرجوا به[1].

هي رواية متهافتة تستحيل عقلا فكيف يعير المصريون حليهم النفيسة اليهود الممتهنين في ذلك الوقت؟!

وأمر موسى عليه السلام من قبل ربه ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧].

وهكذا يكون للعصا دور آخر جديد، فبعد أن كانت حية تسعى صار منوطًا بها شق البحر بإذن الله تعالى، لكن فرعون وقومه لم يكونوا ليذروهم يخرجون من مصر دون ملاحقة، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء:٦٠].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:٩٠].

ورغم أن الله عز وجل طمأن موسى بألا يخاف لحاق فرعون وجنوده إلا أن الخوف قد عاوده مرة أخرى، لكن سرعان ما ازداد ثقة بخالقه الذي كثيرًا ما لجأ إليه في ملماته؛ فصار مصدر اطمئنان لقومه بعد تسلل الرعب إليهم، ويصور القرآن هذا المشهد.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٣].

وعندها مر موسى وقومه وخاطبه ربه قائلا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان:٢٤].

«وفي ﴿رَهْوًا﴾ وجهان: أحدهما ساكنًا أي: لا تضربه ثانيةً واتركه على هيئته من انتصاب الماء وكون الطريق يبسًا. وذلك أن موسى أراد أن يضربه حتى ينطبق خوفًا من أن يدركهم قوم فرعون، والله تعالى أراد أن يدخل القبط البحر ثم يطبقه عليهم. وثانيهما: أن الرهو الفجوة الواسعة أي: اتركه مفتوحًا منفجرًا على حاله»[2].

في اللحظة التي بدأ البحر ينطبق فيها على فرعون وجنوده بعد اجتياز موسى عليه السلام ومن معه وبدأت المياه في الارتفاع قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]؛

(١) انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٢٥٧.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٠٥.

لكن توبته المزعومة لم تكن لتنفعه في هذا الوقت؛ لأنها لم تكن عن إيمان وقناعة وإنما كعادة قومه الذين طلبوا من موسى أن يكشف عنهم الرجز ووعدوه بالإيمان به حال كشفه، وسرعان ما عاودوا الكفر وحنثوا بالعهد، وقد أراد من وراء ذلك أن يدفع عن نفسه الغرق، ولا يلتفت إلى ما قاله البعض من أن فرعون عندما رأى البحر قرر عدم الولوج غير أن جبريل مكر به، فأقبل على فرس أنثى، فأدناها من حصان فرعون، فطفق فرسه لا يقر؛ فما ملك فرعون فرسه أن ولج على أثره[1]، فلو صدقت نية فرعون في عدم متابعة موسى لصحت توبته، فالله لا يظلم الناس شيئًا.

وهنا جاءه الرد الإلهي الحاسم ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩١-٩٢].

قال النيسابوري: «لتكون دليلا على كمال قدرتنا وعنايتنا. وإن من اتبع خواص عبادنا نجعله من أهل النجاة والدرجات بعد أن كان من أهل الهلاك والدركات»[2].

ونظرًا لأهمية ذلك اليوم الذي نجى الله فيه موسى وقومه؛ فقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بصيامه ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: **(قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى؛ قال: فأنا أحق بموسى منكم؛ فصامه وأمر بصيامه)**[3].

بل كان حريصًا على صيامه حرصه على صيام الفريضة ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: **(ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيام فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء وهذا الشهر يعني شهر رمضان)**[4].

إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص:٥].

وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٠.
(٢) غرائب القرآن ٣/ ٦١٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٦.

ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور:٥٥].

موسى عليه السلام ورؤية ربه

واعد الله عز وجل موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر كانت بمثابة التهيئة لتلقي التوراة.

ففي القرآن الكريم ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢].

ولم يترك بني إسرائيل وحدهم فطلب من أخيه هارون أن يكون خليفة له ونائبًا عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقد فصلنا أمر الاستخلاف ووجه استدلال الشيعة بحديث الإمام علي رضي الله عنه قبل ذلك.

ظل موسى عليه السلام أربعين ليلة اختلف حولها المفسرون؛ فقيل: «إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة وعشر ليال تتمة أربعين ليلة»[(١)].

وقيل: إن المواعدة كانت في الأصل ثلاثين غير أنه تعجل قبل الموعد بعشرة أيام[(٢)]، حتى كان اليوم الموعود الذي جاء لميقات ربه فطلب موسى من ربه أن يراه، وربما يتساءل البعض: كيف لموسى أن يتجاسر ويطلب من ربه طلبًا كهذا؟!

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨٦.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٣٢١.

يبدو -والله أعلم- أن كلام الله جل جلاله لموسى قبل ذلك وتقريبه له نجيًا جعله يطلب من ربه هذا الطلب، ويقص علينا القرآن هذا الحدث: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

لكن جاء الرد الإلهي بأن ذلك لن يحدث، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولبى موسى نداء ربه بانتظار ما سيكون؛ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف:١٤٣] من هول الموقف.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فبمجرد أن أفاق موسى نزه ربه تعالى عن أن تحيط به الأبصار ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣].

وأحس موسى بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه.

ويبدو أن هناك من ذهب إلى أن موسى عليه السلام سأل الرؤية لقومه لا لنفسه.

وهو ما رده الفخر الرازي وقال بفساده لعدة اعتبارات:

«**الأول**: أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى: أرهم ينظروا إليك ولقال الله تعالى: لن يروني فلما لم يكن كذلك بطل هذا التأويل.

والثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلبا للمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف:١٣٨].

منعهم عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال فأما أن لا يذكر شيئا من تلك الدلائل البتة مع أن ذكرها كان فرضا مضيقا كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام وأنه لا يجوز.

والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام، أو ما آمنوا بها، فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل مجرد قول موسى عليه السلام، فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام، وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب؛ لأنهم يقولون له: لا نسلم أن الله منع من الرؤية، بل هذا قول افتريته على الله تعالى، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة

للقوم في قول موسى عليه السلام أرني أنظر إليك»[1].

ومسألة الرؤية هنا أثارت إشكالية كبيرة ممتدة منذ قرون عديدة، وهناك جدل قديم دائر بين أهل السنة والمعتزلة حول إمكانية رؤية الله تعالى، فهي «عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلا، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تعالى في الآخرة نصا ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالا وإنما سأل جائزًا»[2].

ثمة رأي يذهب إلى أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ومعه السبعون رجلا مصداقًا لقوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ [الأعراف:١٥٥].

ومنهم من يذهب إلى أنهما ميقاتان وليس ميقاتًا واحدًا[3].

يقول ابن عطية الأندلسي: «معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم»[4].

نادى الله نبيه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف:١٤٤-١٤٥].

وبصرف النظر عن عدد الألواح ونوع مادتها؛ فقد قال القرآن إنها احتوت من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وهو ما فسره ابن عاشور: «أي: كل شيء تحتاج إليه الأمة في دينها... والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام»[5].

والتوراة كما وصفها القرآن تضمنت تشريعات جديدة أحلت بعض ما كان محرمًا على بني إسرائيل.

يقول تعالى: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٥٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٤٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٢٦.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩.
(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٩٧.

وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

كما تضمنت أحكامًا تنظم حياة الناس ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

وهي كتاب هداية وإرشاد ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

كما تضمنت التوراة بشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي القرآن على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وعاب القرآن على اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة وما جاء فيها وشبههم أسوأ تشبيه، يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ومن عجيب أمر بني إسرائيل أنهم لما نجاهم الله عز وجل من فرعون مصر وأراهم المعجزات والآيات واحدة تلو الأخرى طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهًا صنمًا، ويحكي القرآن هذه المأساة الحقيقية.

يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

ويبدو أن غياب موسى عنهم مدة الأربعين يومًا جعلهم يتخبطون وفي غيهم يترددون.

يقول البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه: ٨٣]: «أي: أي شيء أوجب لك العجلة في المجيء عن قومك وإن كنت بادرت مبادرة المبالغ في الاسترضاء، أما علمت أن حدود الملوك لا ينبغي تجاوزها بتقدم أو تأخر؟!»[1].

لكن موسى كان حسن الظن أكثر مما ينبغي فقال: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٤-٨٥].

(١) نظم الدرر ١٢/ ٣٢٢.

لقد أخبره الله تعالى بما كان من قومه الذين عبدوا العجل رغم نهي هارون لهم.

لكن ما سبب هذه الردة العقدية؟!

ويرجع الدكتور محمود مزروعة نزوع بني إسرائيل إلى عبادة العجل وقت غياب موسى إلى عدة أسباب أهمها: القاعدة التاريخية المعروفة بولع المغلوب بتقليد الغالب، وميل بني إسرائيل بطبيعتهم إلى تقديس المادية، وطول العهد الذي قضوه بين المصريين مما أنساهم كثيرًا من أركان دينهم[1].

وتصور الآيات عودة موسى غاضبًا من فعلة قومه الشنيعة ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٨٦-٩١].

والسامري هو كلمة السر التي كان لها الأثر الأكبر في قوم موسى، فهو من أقنعهم بأنهم في حاجة إلى إله يصنعونه من الذهب الذي جاؤوا به عندما خرجوا إلى سيناء، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وتلك آفة قديمة أن يدعي البعض احتكار الحقيقة دون غيره؛ فيسمع له من لا عقل له، ويخضع من لا حيلة له.

ويبدو أن بعضهم قد آب إلى نفسه وأفاق من سكراته قبل أن يرجع موسى عليه السلام إليهم، ويصور لنا القرآن مشهد ندمهم على هذا الضلال المبين.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف:١٤٩].

ويسجل القرآن مشهد عودة موسى عليه السلام الغاضب مما فعله قومه بجهلهم، وكيف كان عتابه على قومه وأخيه هارون شديدًا.

يقول عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣].

(١) انظر: الدين وحاجة الإنسانية إليه، ص ١٥١.

وقد روج بعض من لا يجيدون التعامل مع الخطاب القرآني أن هناك تواطؤًا من جانب هارون عليه السلام بدليل غضب موسى عليه السلام على النحو الذي أشارت إليه الآيات، لكن هذا ما ينفيه القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥].

فموسى يعلم قبل أن يرجع إلى قومه أن سبب ضلال قومه هو السامري وليس هارون، وقد شرح الأخير ما حدث معه ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

فالآيات هنا تشير إلى أن القوم تكالبوا عليه واستضعفوه وقت غياب أخيه، وصمموا على عبادة العجل رغم نصحه لهم ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

إن هارون كما يبدو من قوله: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٤].

آثر أن يقدم النصيحة بلسانه للضالين من قومه دون أن يغير المنكر بيده ومعه بعض من رفضوا عبادة العجل حتى لا يحدث شرخًا بين بني إسرائيل، وربما اقتتلوا؛ ومن ثم آثر أن ينتظر حتى يعود أخوه.

على أن الشيخ الطاهر ابن عاشور يقول: «وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه، أي: إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل، واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٤].

لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب، ولم يكن له عذرًا، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنما كان هارون رسولًا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلا الاعتذار والاستصفاح منه. وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد، ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير»[1].

فهو يرى أن اجتهاد هارون كان في غير محله، ومن ثم استوجب تعنيف أخيه.

وبعد أن توجه موسى بحديثه إلى قومه،

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١١٦.

ثم ما كان منه مع هارون، وحتى تتضح الصورة أكثر توجه بالخطاب إلى السامري الذي أضل بني إسرائيل وسول لهم عبادة العجل تشبهًا بالوثنيين ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه:٩٥-٩٧].

ويفسر صاحب الظلال هذا الترتيب السليم في الاستجواب قائلا: «عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسئولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسئول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا؟ لأنه لم يفتنهم بالقوة ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرًا»[1].

وهكذا ينتهي موسى من مساءلة قومه وأخيه والسامري وذهب عنه الغضب حمل الألواح ثانية ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤].

ثم إن الله تعالى توعد الذين أضلوا بني إسرائيل بعبادة العجل، مع ترك الباب مفتوحًا أمام من غرر بهم للتوبة والرجوع إلى الله، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف:١٥٢-١٥٣].

وقد تاب الله على من تاب منهم وعفا عنهم كما أشارت الآيات ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة:٥١-٥٢].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٨.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

رغم تكرار كثير من تفاصيل حياة نبي الله موسى عليه السلام في القرآن الكريم بشكل لافت للنظر إلا أن قصته مع العبد الصالح لم تذكر إلا في موضع واحد في سورة الكهف رغم انطوائها على دروس تربوية واجتماعية ونفسية ودعوية، لكن السورة لم تورد شيئًا عن سبب هذا اللقاء الذي جمع بينهما.

ثمة أحاديث نبوية مطهرة تكفلت بهذه الحلقة التي لم يتناولها القرآن، ففي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(بينما موسى في ملإٍ من بني إسرائيل جاءه رجلٌ فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضرٌ، فسأل موسى السبيل إليه)**[1].

ويبدو أن حديث موسى عليه السلام كان مفعمًا بالمشاعر الرقيقة الجياشة التي جعلت العيون تدمع من صدق لهجته وصادق موعظته، ففي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(موسى رسول الله ذكر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب)**[2].

فسبب اللقاء كما في الحديث الشريف هو إعجاب موسى عليه السلام بعلمه عندما سئل إن كان هناك من هو أعلم منه أم لا؛ فأراد الله تعالى أن يعلم نبيه فجاء الأمر الإلهي إليه أن يتوجه إلى لقاء رجل حاز من العلم ما لم يحزه؛ فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نونٍ كما في الحديث السابق.

ولا يعول على ما ورد عن أهل الكتاب أن موسى هنا ليس موسى بن عمران النبي عليه السلام إنما هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ فليس في القرآن إلا ابن عمران النبي، ولو كان الأمر خاصًا بغيره لنبه القرآن على ذلك، ومن ثم فالسياق القرآني حاكم، فضلا عن أحاديث صحيحة منها ما روي عن سعيد بن جبيرٍ، قال: «قيل لابن عباسٍ: إن نوفًا يزعم أن موسى الذي ذهب يلتمس العلم ليس بموسى بني إسرائيل، قال: أسمعته يا سعيد؟ قلت: نعم، قال: كذب نوفٌ»[3].

وفي ذلك يقول ابن كثير: «والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه، أنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى العبد الصالح، رقم ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الكهف، رقم ٤٣٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل العبد الصالح عليه السلام، رقم ٢٣٨٠.

موسى بن عمران، صاحب بني إسرائيل»[1].

واختلف المؤرخون والمفسرون حول العبد الصالح اختلافا لا يتسع له المقام حول اسمه ونسبه ونبوته؛ بل ذهب البعض إلى القول إنه حي لم يمت حتى الآن[2].

كما اختلفوا في المكان الذي سماه القرآن ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لكننا لن نتوقف كثيرًا أمام تفاصيل سكت عنها القرآن لحكم إلهية يعلمها الله، ونحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا أن نحلق حول حزمة الآيات التي تناولت القصة والوقوف على ما تيسر من المقاصد والعبر.

تبدأ القصة ببيان حرص موسى عليه السلام ودأبه على طلب العلم امتثالا لأمر ربه ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

قال الفخر الرازي: «يعني: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول: لا أبرح المكان»[3].

ثم يمضي موسى عليه السلام مع فتاه إلى المكان المقصود ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف:٦١-٦٢].

يقول ابن قيم الجوزية: «لما سافر موسى إلى العبد الصالح وجد في طريقه مس الجوع والنصب؛ فقال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فإنه سفرٌ إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفرٌ إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»[4].

كانت المفاجأة التي ينتظرها موسى عليه السلام؛ فقد قال له يوشع: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف:٦٣].

لكن موسى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤].

وهنالك كانت اللقيا، وفي الحديث الشريف بعض تفاصيلها: **(وانطلق بفتاه يوشع بن نونٍ، وحملا حوتًا في مكتلٍ، حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما، فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا،**

(١) البداية والنهاية ٢/ ١٧٠.
وانظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، رقم ١٢٢.

(٢) انظر:: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٦٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٢٤٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٢١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٧٩.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣.

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى مسًّا من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾).

لقد وجد موسى عليه السلام ويوشع رجلا وصفه الله تعالى بأنه كان ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

فمن العلم ما يكون بالاجتهاد والتحصيل، ومنه ما يكون لدنيًا يهبه الله من يشاء من عباده، وفي كل الأحوال لابد أن يقترن العلم بالرحمة؛ بل تتقدم الرحمة على العلم؛ لأن المتعلم أسير عند معلمه، فكان الرفق به واجبًا.

استأذن موسى عليه السلام العبد الصالح في تحصيل العلم على يديه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف:٦٦].

وهذا من آداب المتعلم أن يقدم الإذن بين يدي شيخه ومعلمه في تواضع وإخبات لا في كبر واستعلاء، لكن الرجل قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ [الكهف:٦٧].

وبرر ذلك بقوله متسائلا: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف:٦٨].

لكن موسى الذي جعله ربه في موضع المتعلم قال للرجل: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾ [الكهف:٦٩].

فأعطاه بذلك عهدًا أن يطيعه فلا يعصي أمره، وهو ما جعل الرجل يشترط عليه مرة أخرى إمعانًا في التأكيد ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف:٧٠].

وفي الحديث: (فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجلٌ مسجًى بثوبٍ، أو قال تسجى بثوبه، فسلم موسى، فقال العبد الصالح: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إني على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ علمكه لا أعلمه، قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا، ولا أعصي لك أمرًا).

ثم انطلقا لتبدأ رحلة الأعاجيب التي حكاها القرآن في قالب مشوق يجعل القارئ شغوفًا بما تؤول إليه الأحداث.

وفي الحديث (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينةٌ، فمرت بهما سفينةٌ، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف العبد الصالح فحملوهما بغير نولٍ، فجاء

عصفورٌ، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرةً أو نقرتين في البحر، فقال العبد الصالح: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر).

وهنا الدرس الأول لموسى: قصور علمه وضآلته أمام علم الله تعالى.

كان من الطبيعي وبسبب عدم إحاطة موسى بحقيقة الأمر أن تؤرقه تصرفات الرجل المفاجئة، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عندما ﴿رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١].

فقد خان موسى عليه السلام ثباته الانفعالي ونسي عهده بعدم السؤال عن شيء؛ فاستنكر عليه خرق السفينة لإغراق أهلها رغم إكرام أصحابها لهما وحملهما بدون أجرة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! فذكره الرجل بالاتفاق ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف:٧٢].

وسرعان ما آب موسى إلى نفسه وقدم الاعتذار بين يدي المعلم ملتمسًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٣].

في الحديث: (فعمد العبد الصالح إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نولٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا، فكانت الأولى من موسى نسيانًا).

ثم إنهما انطلقا فقابلا غلاما فقتله العبد الصالح؛ فارتاع موسى عليه السلام وقال في استهجان: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٧٤].

عندها رد العبد الصالح: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف:٧٥].

تذكر موسى العهد فأعاد الاعتذار مرة أخرى طالبًا الصفح؛ بل اشترط على نفسه قائلا للخضر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٦].

في الحديث: (فانطلقا، فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمان، فأخذ العبد الصالح برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفسًا زكيةً بغير نفسٍ؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟).

ثم كان الموقف الثالث الذي جعله يفارق موسى، يحكي القرآن ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف:٧٧].

ويبدو أن مالهما قد نفد أو كاد، أو أن موسى أراد للخضر أن يأخذ أجرة بعد

عدم تضييفهما في القرية، ومن ثم اقترح عليه قائلا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

ولكن العبد الصالح رأى في ذلك إخلالا بالاتفاق المرسوم بينهما فبادر إلى الفراق ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف:٧٨].

ولم ينس أن يخبر موسى عليه السلام عن الحقائق الغائبة عنه حتى يحسن الظن به.

وفي الحديث: (فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال العبد الصالح: بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، قال: هذا فراق بيني وبينك) قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما).

بدأ العبد الصالح بيان الأسباب التي دعته إلى هذه التصرفات التي رآها موسى جرائم لا يمكن السكوت عنها، فأي عقل هذا الذي يجعله يصدق أن خيرًا خفيًا يكمن وراء خرق السفينة بدلا من الوفاء لهم جزاء إحسانهم، أو قتل الغلام الذي لم يروا منه بأسًا، أو ترميم جدارٍ دون أخذ أجرة عليه رغم سوء معاملة أهل القرية لهما؟!

لقد نسي موسى عليه السلام أنه ذهب متعلمًا، ومن ثم أنكر عليه أفعاله؛ وهكذا النفوس المجبولة على الخيرية لا يمكنها أن تتغاضى عن إنكار المنكر مهما تكلفوا؛ لكن الواقع أثبت أن موسى لم يكن يعلم من الأمور إلا ظاهرها، لا كما العبد الصالح الذي أطلعه الله على بعض الغيبيات فتصرف على هذا الأساس.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٧٩-٨٢].

وهكذا تكشفت المقاصد الخفية وراء هذه الأحداث الغريبة التي أصابت موسى بالقلق والاضطراب طيلة الرحلة؛ فأدرك حينها قصور علمه ووجوب التواضع وعدم نسيان نعمة الله عليه.

الدروس المستفادة من قصة موسى

١. إن عناية الله تعالى بموسى عليه السلام تجعل العاقل في اطمئنان لقضاء الله، فمن يتخيل أن ينجو الرضيع بالإلقاء في البحر، ويربى في بيت عدوه وعدو قومه الذي سيزول ملكه على يده، ويجعل زوجة الفرعون هي مربيته وحاضنته، والمصريون هم حاشيته وخدمه، وأمه هي مرضعته، فلا امتدت يد الذبح إليه، ولا هو فارق أمه، وقد رباه حتى شب من سيقف في وجهه يومًا؛ يدعوه إلى عبادة الله الواحد، ورفع نير العبودية عن بني إسرائيل.

٢. عاش موسى عليه السلام في بيت فرعون يرفل في النعيم لكنه لم ينس أصله وقضيته، فرعاية الله تعالى له وحفظه في بيت عدوه لم تكن من أجل حفظ موسى؛ بل لرسالة سيحملها ويكلف بتبليغها إلى فرعون للخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

٣. على المؤمن أن يستعين دومًا بربه ليهديه، فموسى عليه السلام كان دائمًا معتمدًا على ربه، محتاطًا في أمره، متخذًا الوسائل والأسباب المناسبة، استعان بربه وقت خروجه من مصر، وساعة دخوله مدين، وأثناء عودته، ووقت مواجهته لفرعون لما دعاه ثم آذاه وتبعه حتى أغرق، وطول مخالطته لبني إسرائيل.

٤. المروءة من أخلاق العظماء التي تتجلى حينما يبذل الإنسان من وقته وجهده وماله ولا ينتظر جزاءً أو شكورًا من أحد، ولا يجرمن النبلاء أن المروءة قد تصل بأصحابها إلى حد إهلاك المال والأنفس.

٥. للعمل قيمةٌ عظيمة أدركها الأنبياء، فموسى عليه السلام لم يرض أن يكون عالةً على أحد، فعمل أجيرًا لسنوات طويلة، وقضى من عمره عقدًا كاملًا -أو أقل قليلا- في خدمة صهره؛ لزواجه من ابنته، وهو الذي عاش في القصور لم يأنف خدمة الآخرين، ولكنه وطن نفسه لتحمل المشاق، وتغير أحوال الزمان، ودار مع أحواله جميعًا بالرضى.

٦. وفاء موسى عليه السلام مع الشيخ نموذج يحتذى به، فقد أدى ما عليه، ولم تزده الأيام إلا وفاءً لصهره ورب عمله؛ وكان من المحتمل بعد زواجه من ابنته أن يتبرم أو ينكث، ولكنه صبر على العمل حتى وفى ما عليه، وربما زاد عليه.

٧. كثيرٌ من الناس لا يؤمن إلا بما هو محسوس وملموس، وينكر ما لا يقع تحت حواسه، وهذا مجاف للواقع، وما لا يراه الإنسان أكثر بكثير مما يراه، ولو أنكر ما لا يقع تحت حسه لأنكر ضروريات، ولخسر خسرانًا مبينًا؛ فالجنة والنار غيب، والقيامة غيب، والملائكة غيب، فإذا أنكر الإنسان ما جاءت به الرسل لعدم وقوعها تحت حسه، فالخسران والبوار في انتظاره عند تحقق ما كان ينكره.

٨. فارق بين الخوف المشروع والخوف المذموم؛ فطبيعة الإنسان قد تخاف وترهب بعض الأمور، فالإنسان يخشى على نفسه التلف والهلكة، ويخشى من بعض الحيوانات المفترسة، ويخاف على أولاده وذويه فيضعف عند الضغط عليه ومساومته، فهذه فطرة في معظم البشر، ولكن أصحاب الهمم العالية يتجاوزون خوفهم، ويستمدون القوة من الله تعالى، ولا يجبنون، ويواجهون الشدائد بعزم وثبات.

٩. النسب غير مانع من الاستعانة في العمل لا سيما الدعوي طالما كان الشخص مهيئًا لذلك، فبه يكون شد العزم والتثبيت، وهو الخليفة والقائد في الغياب، وعليه يكون التعويل في الشدائد، وقد حاول موسى عليه السلام الاستفادة من قدرات أخيه في خدمة الدعوة.

١٠. تحول سحرة فرعون في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان، وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها، ولهذا على الداعية ألا ييأس من مدعويه، فما يدريك لعل عدو الأمس يصبح صديق اليوم.

١١. لا يجد المستبدون بدًا من اللجوء إلى سلطتهم وقوتهم الغاشمة التي لا يعرفون غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق؛ وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول، فيبطشون بمن يعارضهم ولا ينزل على رأيهم، ويظنون أن قوتهم غالبة، ولكنهم يكونون في أضعف حالاتهم؛ إذ إن من يقف في وجوههم يكون أقوى منهم بإيمانه ويقينه وثباته.

١٢. ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى عليه السلام نفعًا، وبالتالي يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها

ممن يؤرق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسيًا أن الفكرة لا تموت، وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم.

١٣. الدنيا لا تعدم الخير حتى في أشد الأماكن فسادًا وعطنًا فقد انبرى رجل مؤمن في بلاط فرعون المستبد مدافعًا عن موسى عليه السلام ومتحدثًا بلغة العقل والمنطق، محاولًا الأخذ بيد قومه إلى الحق والرشد، ومحذرًا لهم من عاقبة التكذيب والعناد، وضاربًا لهم المثل بالأمم السابقة وما حدث لها جراء تجاهلهم للحق وتكذيبهم أنبياءهم.

١٤. الحكام الجائرون لا يتركون طريقًا إلا سلكوها في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض، فيسلكون سبيل الحوار إن كان يؤدي إلى ما يريدون، فإذا خاب سعيهم بحثوا عن وسائل أخرى تحقق مبتغاهم، حيث الترهيب والترغيب، ويكون في سيوفهم رهق دائمًا.

١٥. إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٥]. وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥].

١٦. الطبع يغلب التطبع، فقد عاود بنو إسرائيل التمرد بدلا من شكر النعم، ويحكي القرآن ما دار بين موسى عليه السلام وقومه وكيف تبدلوا الخبيث بالطيب؛ فطلبوا عبادة العجل، واشتهاء الدون من الطعام، كأنهم يتمردون على ربهم الذي أنجاهم ممن كاد أن يهلكهم، وقد نال موسى من قومه شدائد عظامًا لا يقدر عليها إلا أمثاله من أولي العزم.

١٧. أحس موسى عليه السلام بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه، وهكذا المؤمن يؤمن بالغيب إيمانًا لا يتزعزع، ويثق فيما غاب عنه

كأنه يعاينه طالما جاء به الخبر الصادق. وإذ لكل حادث حديث؛ فإن هناك من الأمور ما لم يأت وقته، فلا يصح أن نعجل عليها.

١٨. كان من العجب أن يتجه بنو إسرائيل إلى عبادة العجل، بعد أن رأوا إهلاك الله لعدوهم، وإنجاءه لهم، وانفلاق البحر، وكلها مشاهد عجيبة لا تحدث في تاريخ البشرية إلا مرة واحدة، ثم يكون انطماس البصائر، والحنين إلى الشرك الذي كان عليه المصريون من عبادة الأوثان وترك توحيد الديان.

١٩. عصيان بني إسرائيل لموسى وعدم دخول الأرض المقدسة أوجب عليهم أن يقعوا في التيه جيلًا كاملًا؛ حتى يأتي جيل جديد يفعل ما أمره الله به، ولا يخاف أحدًا إلا الله، ويتبع أنبياءه وقادته الذين هم الأدلاء لهم إلى طريق الحق والنصر، فالعقوبة شديدة على قدر الذنب، والنصر يأتي مع الطاعة وبها.

٢٠. المسلم مطالب بالتأمل في مصير الأولين وأخذ العبرة والموعظة بعيدًا عن التفاصيل التي سكت عنها القرآن، وهو الأمر الذي عودنا القرآن إياه مع الأمور التي قد لا ينفع العلم بها، والجهل بها لا يضر.

٢١. قد يعلو صوت الباطل مدة تطول أو تقصر، لكن يأتي اليوم الذي يتكشف فيه زيفهم، وينتصر الحق الذي كان مستضعفًا، ويندحر الباطل الذي كان منتفشًا، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويخزى أهل الباطل لا ريب.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، التوراة، فرعون، الكتب المنزلة، مدين، النبوة